ورقة في البعث الحضاري وبيئته

شرح حديث

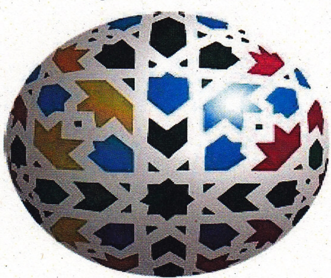
«ما الفقرَ أخشى عليكم»

كتبها

الشيخ عمر بن محمود أبو عمر

أبو قتادة الفلسطيني

- حفظه الله تعالى -



النور للإعلام الإسلامي

ورقة في البعث الحضاري وبيئته

شرح حديث

«ما الفقرَ أخشى عليكم»

حقوق الطبع لكل مسلم صادق راغب بالتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ
دفاعاً عن العقيدة والتوحيد والمنهج الصحيح
فجزى الله خيراً كل من يطبعه ويُوزعه
والدال على الخير كفاعله

الطبعة الأولى
١٤٣٣ – ٢٠١٢م

النَّاشِر :

النور للإعلام الإسلامي
Al Nur Islamic Information
Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur1@hotmail.com

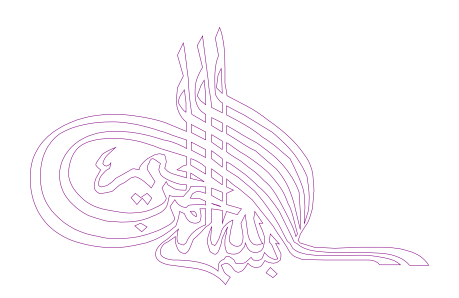


فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وبالجملة فالسلامة من الخطر، أمرٌ يعز على البشر، فسترَ الله على من ستر وغفرَ لمن غفر:

فَـانْظُرْ إِلَيْهَـا نَظَـرَ الْمُسْتَحْـسِنِ ... وَأَحْـسِنِ الظَّـنَّ بِهَـا وحَـسِّنِ
وَإِنْ تَجِـدْ عَيْبـاً فَـسُدَّ الخَلَـلا ... فَجَـلَّ مَـنْ لاَ فِيـهِ عَيـبٌ وَعَـلا
وَالحَمْـدُ للهِ عَلَـى مَـا أَوْلَـى ... فَـنِعْمَ مَـا أَوْلَـى وَنِعْـمَ المَـوْلَى
ثُـمَّ الـصَّلاةُ بَعْـدَ حَمْـدِ الـصَّمَدِ ... عَلَـى النَّبِـيِّ الْمُـصْطَفَى مُحمَّـدِ
وَءَالِـهِ الأَفَاضِـلِ الأَخْيَـارِ ... مَـا انْـسَلَخَ اللَّيْـلُ مِـنَ النَّهَـارِ[١]

---

[1] الأبيات من «ملحمة الإعراب» للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري. (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ / ١٠٥٤ ـ ١١٢٢ م).



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النَّبيِّ الأمين، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:-

فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَمْرُو بْنَ عَوْفٍ، وَهُوَ حَلِيفُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَكَانَ شَهِدَ بَدْراً مَعَ رَسُولِ اللهِ، أَخْبَرَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ. يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ. وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ. فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ. فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ . فَوَافَوا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ . فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ انْصَرَفَ. فَتَعَرَّضُوا لَهُ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ حِينَ رَآهُمْ. ثُمَّ قَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟» فَقَالُوا: أَجَلْ. يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:-

«فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ. فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1].

---

[1] البخاري: ٣١٥٨. طرفاه في: ٤٠١٥، ٦٤٢٥. مسلم: ٢٩٦١.

كلمة الحضارة مُشتقةٌ من الحُضور، وهي وإن كانت في العُرف العربي تُقابل البادية إلاَّ أنها صارتِ اليوم دلالة على أُمَّةٍ مِن الأُمم لها وجودٌ خاصٌ باهرٌ، لأنَّ كلمة حاضر في اللغة تعني الحي العظيم، وهكذا لا تُطلق الحضارة إلاَّ على أُمَّة عظيمةٍ في كِيانها المعنوي والمادي، وشرط هذا الكيان هو الحضور؛ أي الفاعلية، لكنها فاعلية غالبة قاهرة، لأنَّ هذا هو سِمَّة الحضارات، فَمِنْ غير حضورٍ غالبٍ تفقد الحضارة سمتها في التأثير والوراثة، ودافع الأُمم للحضور والغلبة والوراثة يكون بسبب العقائد والظرف السَّنني الوُجُودي، فشعور أُمَّةٍ من الأُمم بخيريتها أو باعتقادها لدينٍ دعويٍّ يدفعها لهذا الحضور وهذه الغلبة وهذا التأثير، كما أنَّ قسوةَ الحياة وقِلَّة مواردها يلقن هذه الأُمم قوة الإرادة للخروج إلى آفاقٍ جُغرافيةٍ أُخرى لتحقيق الرخاء ورغد العيش.

هذان السببان؛ الاعتقاد والظرف السَّنني الوُجودي بينهما تأثيرٌ تبادلي سِلْباً وإيجاباً، فعقيدة استعلائية أو دعوية دافعٌ داخليٌّ لتحقيق الحُضور والغزو، وغِياب هذه العقيدة لا يحقق أبداً الحضور ولا البناء الحضاري الفاعل، كما أنَّ رخاءً وبسطة عيشٍ ورغداً تُضعف أصحاب العقائد الفاعلة من تحقيق إرادتها بالحُضور والتأثير والغَلبة، ولذلك جاء تحذير المصطفى ﷺ مِن بسط الدنيا عليها كما في هذا الحديث الشريف الذي نحن بصدد شرحه.

الزُهد والفقر والغِنى أحوالٌ شُرحت في كُتُبِ السُّلوك والأَخلاق، وفي كُتب الوعظ والإرشاد بما يتعلق بالفرد تجاهها، ولا أعلمُ كتاباً يحكي عن أثر هذه المعاني والظروف على وِجهة الأُمَّة الإسلامية ووُجُودِهَا الحضاري الفاعل.

إنَّ شرط الحضارة هو الغزو، إذ لا تقع الحضارة كما تقدم إلاَّ بغلبةٍ، ولامتداد فاعلية الإسلام وتحقيق غَلبته وعِزَّتِه التي هي قدر هذا الدين كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. جعل الله سبحانه وتعالى حياة الأُمَّة الإسلامية وعَملها الذي تَصْطَبِغُ به إنما هو الجهاد في سبيل الله تعالى، فهو

مصدرُ رِزقها، وهو باب جنتها يوم القيامة، وهو حياتها كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي الجهاد، فالجهاد ليس فِعْلاً مُؤَقَتاً بوقتٍ بل هو بالنسبة لهذه الأُمَّة هو الوُجود والحياة، فمن رأى الأحكام المُترتبة عليه مِن حلِّ الأموالِ والفُروج والأراضي والنفوس عَلِمَ أنَّ هذه الشعيرة هي أعظم بل وأكرم ما تُبْنَى عليه حياة هذه الأُمَّة.

هذا الأمر العظيم له مُعوقات منها ما هو في إفساد إرادة الأُمَّة، وأخبثها «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**»[1]. أي ضُعف ذِكرى الدار الآخرة، ومنها ما هو بسبب الظرف السَّنني الوُجودي؛ وهو رغدُّ العيش وبسطُ الشهوات، وقد تبيَّنَ من دراسة نشوءِ الحضارات أنها لا يمكن أن تنشأ في بيئةٍ مُترفةٍ، لأنَّ الترف كسلٌ، والكسل يعني غِياب الإرادة وموت الهمم، ومن غير إرادةٍ وتحدي الصِّعاب لا تكون حضارات.

ابن خلدون في «مقدمته»[2] يرى أنَّ الدول في أول نَشوتها تكون بعيدة عن الترف، وهذا حقٌّ، فإذا لحق بها الترف بدأت بالأُفُول والذهاب وهذا حقٌّ كذلك لا شك فيه، فبيئة نشوء الحضارات هي الشدة والزُهد، وكما أنَّ الزُهْدَ وشِدَّة الحياة اختيار أفراد لنوع حياتهم الخاصة، فكذلك الزُهد وشظف وقسوة الحياة اختيار دولٍ وأُممٍ، فالدول المُترفة يقودها الملأ داخلها إلى السكون والترف، لخوفهم الشديد القاهر من ذهاب دُنياهم ومباهجها، وهو خوفٌ لا يُذْهِبُ إرادة الانبعاث والغزو فقط لكنه يُنْشِئُ قِيَّماً خاصةً عِمادها البخل الذي يفضي للتنافس وقطع الروابط والأواصر الاجتماعية المُهمة في البناء الوُجودي الحضاري، وبهذا يتحقق بهذا الترف دمارٌ خارجيٌّ وانهيارٌ داخليٌّ، وحين يتحقق هذا فإنَّ كلَّ

---

[1] أبو داود: ٤٢٩٤. البيهقي «دلائل النبوة»: ٦/٥٣٤.
[2] «مُقدمة ابن خلدون»: ١٢٧.

محاولةٍ للإصلاح الداخلي هي مجرد تسكينات في أحسن حالاتها، لكنها لا يمكن أن تحقق الوجود الفاعل.

البناء الإسلامي بناءٌ متكاملٌ، لا يمكن أن يضعف منه شِقٌّ إلاَّ لحق الضُعف بتبعية الجوانب، وحين تكبر الآمال والطموحات فوق التصور العلمي لواقعها فإنها تتحول إلى مجرد خيالاتٍ وأوهامٍ، بل وأمراضٍ، ومِثال ذلك ما يعيشه المسلمون في تصوراتهم من مشاعر العِزَّة الفريدة، وما يعتقدونه من وُجوب الخلافة التي تنشر العدل والخير في النَّاس أجمعين، فوجود هذه التصورات العقائدية عند المسلم المُصدِّق بهذه الوعود دون وُجود تصورٍ علميٍّ لتحقيق ذلك يكون مجرد وُجودها وهمٌّ، فلن يكونوا هُمْ أهل تلك الوُعود ولا أصحابها، وتزداد الأوهام مرضاً فاتِكاً إذا كان في أذهان هؤلاء تصورٌ مخطئٌ لتحقيق هذه الوُعود، فحين تسعى جماعات الإصلاح الإسلامية سَعْياً حَثِيثاً في تحقيق هذه الوعود، وتجيش الأتباع والجُموع على وقعها، ثمَّ هي تسير بهم سير المُبطل لها تكون قد أضرت بوعود الإسلام أكثر مما نفعتها، فهذا السعي الحثيث لتحقيق «الدنيا» وإصلاحها ضِمن أحزابٍ سياسيةٍ أو مؤسساتٍ اجتماعيةٍ هو في حقيقته سير باتجاه سهم ذهاب الحضارة الفاعلة لو كانت موجودة، وهذا لا يمكن أبداً أن يحقق وجود الحضارة المفقودة.

لقد تعامل هؤلاء ـ إنْ أحسنا بهمُ الظن ـ في إصلاح عالم الإسلام اليوم تعامُلَ المُصلح مع البناء الحاضر المُكتمل لأُمَّة الإسلام وحضارته، وكأنَّ ما ينقص الأُمَّة هو تكميلٌ لمحاسن الأُمَّة الموجودة، أو ترميمٌ لما تعمله عوامل التعرية والتوهين، مع أنَّ بناء الأُمَّة الحضاري الفاعل الوارث لا وجود له، بل ما هو موجود هو

الضد له، فالأُمَّة موروثة مغلوبة، وهي كما وصفها رسول الله ﷺ «قصعة» تداعي الأكلة عليها[1].

إنَّ ما هو مطلوبٌ لتحقيق الحضور الفاعل الوارث هو تغيِّير وَجْهَةِ الأُمَّة، وتغيِّير وَجهتها يكون مُلازماً لبنائها، لأنَّ هذا هو منطق سيرورة الحضارات وتاريخها، فهي تُبنى داخلياً وخارجياً في ظرفٍ واحدٍ، إذ لا يُوجد في الوجود الإنساني الجماعي منطقُ بعضهم: الفرد فالأُسرة فالمجتمع، فالدولة فالعالم، إذ كل هذا أحلامٌ وأوهامٌ تتدثر بلغة الفكر الجميل الذي يُبْهِرُ الأطفال والمُبتدئين، ومَن درسَ سيرة المصطفى ﷺ في تحقيق حضارة الإسلام رأى أنه لا يُوجد أولاً وثانياً؛ أي الداخل والخارج، بل كان وُجود الحضور الخارجي مُلازماً للبناء الداخلي معاً.

هذا الزهد وشظف العيش مناقضٌ للثرثرة الكلامية، بل ما يُوافق قِلَّةَ الموارد والغزو والحُضور هو دينٌ سهلٌ لا تعقيدَ فيه، فلا وجودَ لفلسفةٍ ولا لمنطقٍ صناعيٍّ ولا لثرثرةٍ مُبْطِلِينَ، ذلك لأنَّ هذا مرتبطٌ وُجُودِياً مع الكسل وضُعْفِ الإرادة، فمِنْ سِمات انهيارِ الحضارات انتشار شهوة الحديث والكلام سواءً بسواءٍ مع انتشار شهوة البطن والفرج.

الحديث عن حبِّ الدنيا وكراهية الموت، كما الحديث عنِ الشهوات والأهواء في عالم الفكر الإسلامي لا وجودَ له، بل وجوده محصورٌ في نطاق الوعظ وكلام القُصَّاص، ذلك لأنَّ «المُفكرين» يرون أنَّ المُشكلة فِكرية، أي ذِهْنِيَّة لا تَعَلُّقَ لها بالإرادة ومُعَوِقَاتِها، ولذلك فلا عجبَ أن نرى أنَّ أشدَّ النَّاس حِرْصاً على الدنيا وشهواتها، وأكثر النَّاس قلة مُراعاة للزهد وواقعه هم أصحاب «الفكر الإسلامي»، بل إنَّ بعض هؤلاء يرون أنَّ شرط انتصار «الحركة الإسلامية» كما

[1] «مسند أحمد»: ٢٢٠١٩.

يُسمونها يكون بسلوك الآخرين من تحقيق ما يُسمونه «الاكتفاء الاقتصادي»، وهو عندهم له معنى غير معنى «الكفاف» الذي كان عليه رسول الله ﷺ، بل معناه تحقيق الثراء، لأنَّ بعضهم يرى أنَّ العالم محكومٌ بأصحاب الأموال، فَلْنَحْكُمْ نحن هذا العالم بالمال إذاً.

تحذير النبيِّ ﷺ من بسطِ الدنيا ليس لخصوصية الإسلام مع الدنيا كما يظن البعض، بل لأنَّ هذا قانونٌ وُجودي سَنني مُضطرد، فإنَّ الترف مرضُ الأُمم جميعاً مُسلمها وكافرها، وهو عِلَّةُ الانتكاسة نحو الداخل وحصول التنافس والتباغض، فالقتال، فالتشتت والاندثار.

القليلُ من الفكر، والكثيرُ من الإرادة، كما القليلُ من الدنيا، والكثير من الوُعود يتحقق لأيِّ أُمَّةٍ مِن الأُمم الحضور الفاعل، والعكس صحيح، فالكثير من الكلام في الفكر وتشقيقاته، وضعف الإرادة، وبسط الدنيا وموت الوعود هي أسباب اندثار الحضارات وسقوطها، وهي أسباب موت الشعوب والأُمم.

«**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ. فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**».

إنْ كان الخِيار لُزُوماً بين الفقر والغِنى فالفقر للأُمَّة خيرٌ مِن الغِنى، مع أنَّ خيرَ المنازل الكفاف كما كان يدعو رسول الله ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلَ محمَّدٍ كَفَافاً**»[1]، ذلك وإنْ كان للفقر وقِلَّة ذات اليد أمراضٌ يُورثها في أصحابه، إلاَّ أنَّ الغنى شرّه أعظم في واقع الأُمَّة ومآلها، فمِن أعظمِ أمراض الفقر ما يُصيب صاحبه مِن اضطرار السؤال حيناً، أو قبول الصدقات، وهذا فيه قهرٌ للنفس على وجه الإذلال وتوطينها على الانكسار أمام النَّاس ذلك لأنَّ اليد السفلى يد مهينة

[1] «صحيح ابن حبان»: ٦/٦٧/ح٦٢٣٤.

على وجهٍ مِن الوُجوه، لكن هذه الأمراض لها علاجها داخل المجتمع المسلم، إذ أن حقيقة الزكاة والصدقة في دين الله أنها حقٌّ للفقير من مال الغني، ولذلك إنْ منعها أُخذت منه بالقوة والإجبار، بل إنْ قاتَلَ على منعها قُوتِلَ على الرِدَّة عند بعض أهل العلم، فهذا التصور الإسلامي لحقيقة الزكاة فيه منع نفوس الأغنياء مِن البَطْرِ والكِبْرِ والترفع على الفقراء، كما أنَّ الزكاة تمنع السؤال الذي يُوجِبُ المهانة والصَّغار، فإنَّ أداء الأغنياء للزكاة يحقق الكِفاية للفقراء مِن غير اضطرارِ السؤال، كما أنَّ تطبيق الزكاة عملياً وهو أداءها للسلطان وسيطاً بين الغني والفقير يمنع ما يقع عادةً من مظاهر مهينة.

في المُقابل ما يكون في قلوب الفقراء والمساكين من انكسارٍ يمنع الكبر والبطر والغُرور هو ما جعلهم دَوْماً مادة قبول الحق والإذعان له، إذ أنَّ هذا الانكسار هو مادة التواضع والخضوع ولِينِ القلوب، بخلاف أهلِ الترف فهم مادة الإعراض والتكبر وترك قبول الحق وعدم الإذعان له كما قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾** ﴾ [سبأ: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقول المُترفين هذا سببه هو أنَّ الآباء والأجداد هم عُمدة هؤلاء المُترفين عادةً في تحصيل الثراء بثراءٍ آخرٍ، والإسلام لا يُوجد فيه البتة مُوجِب النسب سبباً للثراء واكتساب المال، وهذا خلاف الإرث، فإنَّ الممنوع والباطل هو أخذ الأموال مِن النَّاس بموجبِ النَّسب كما يفعل الإقطاعيون ومَن على طريقتهم، كما أنَّ المُترفين يرفضون جديد الحق والإسلام لأنه يحقق ميزاناً جديداً في تقديم النَّاس وتأخيرهم ففي صحيح مسلم[1] :-

عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلاَلٍ، فِي نَفَرٍ. فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:

[1] «صحيح مسلم»: ٢٥٠٤ .

أَتَقُولُونَ هذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ**».

فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاه! أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لاَ. يَغْفِرُ الله لَكَ. يَا أُخَيَّ!.

فما يحقق الإسلام من ميزان السَبق والبلاء في الطاعات بدل ميزان المال والسلطة ينفر أهل الترف منه.

قوله ﷺ: «**مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ**» هل هي الخَشية المنفية هنا الخشية القَدرية أم الشرعية؟ ومعنى ذلك أنها لو كانتِ الخَشية قَدرية فإنَّ في ذلك إخباراً أنَّ الأُمَّةَ بمجموعها لن تُصاب بعده بالفقر لما أعلمه الله بذلك، وإن كانتِ الخَشية شرعية فإنَّ في هذا معنى تحقيق الفقر خيرٌ للأُمَّة مِنَ الغِنى لما يخشى بسبب الغِنى مِن الشرِّ.

والحديث بيَّنَ أنَّ المقصود بذلك هو الخَشية الشرعية، ففي ذلك بيان شرِّ الغِنى على الأُمَّة وقد جاءت في ذلك أحاديثٌ كثيرةٌ، منها ما حذر ﷺ منه أُمَّته في أيامه الأخيرة مِن التنافس على الدنيا، ذلك لأنَّ هذا هو الشرُّ العظيم الذي يقطع أوْصَالَ الأُمَّة ويهلكها، فَعَن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ، بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: «**إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ، وَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، أَنْ تَنَافَسُوهَا**» قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

وعن الشيخين من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللهِ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَقَالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا...**»[2].

---

[1] «البخاري»: ٤٠٤٣.

[2] «البخاري»: ١٤٦٥. «مسلم»: ١٠٥٢.

وعند أحمد[1] والبزار[2] (كما قال المُنذري في الترغيب[3]): عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: بَيْنَما النَّبيُّ جَالِسٌ إِذْ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فِيْهِ جَفَاءٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَكَلَتْنَا الضَّبُعُ؟ ـ أي السنة القاحلة المُجدبة ـ فقَالَ النَّبيُّ: «**غَيْرُ ذَلِكَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ حِينَ تُصَبُّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبَاباً، فَيَا لَيْتَ أُمَّتِي لاَ تَلْبَسُ الذَّهَبَ**».

قال المُنذري: «رُواة أحمد رُواة الصحيح».

فهذا تحذيرٌ متكررٌ من زهرة الدنيا والتنافس عليها.

هذا الخوف النبوي مِن بسط الدنيا على أُمَّته سببه ما يحققه البسط من تعطيل الأُمَّة في اندفاعها نحو الآخر بالجهاد لهدايته وإدخاله في الطاعة الشرعية كما هو داخلٌ في الطاعة القَدرية، وهذا الحديث يُبَيِّنُ في حقيقته السبب الأول في انحسار هذه الأُمة وغِياب فاعِليتها في الوُجود.

يمكن لدارسيِّ الحضارة الإسلامية أن يتحدثوا عنِ العوامل التي أدت لغِيابها وأُفُولِهَا، وقد نشطت منذ سقوط الخلافة الإسلامية التركية دراسات كان عنوانها: «لماذا تخلَفَ المُسلمون وتقدَمَ غيرهم؟» وقد تكلم فيها المُخلصون والمُصلحون كلاماً نافِعاً مُفيداً، وكلٌّ حاولَ أن ينهض بهذه الأُمَّة في جِهةٍ مِن الجهات، وعامةُ هذه الدراسات كان نظراً في المآلات والنهايات؛ أي كان رصداً للواقع الداخلي لظاهرة المرض لا كشفاً عن حقيقة المرض، ودون الدخول في ردٍّ تفصيليٍّ على ما قِيل من دراسات فإنَّ مشلكة أُمَّة الإسلام كانت في تغيِّير وَجْهتها وتخليها عن عملها، فبدل أن تبقى أُمَّة جهادٍ ودعوةٍ، أي أُمَّة غازية هادية، يتحقق بهذا الغزو والهداية الكثير من التحصين الداخلي، فانْقلبَ اتجاه السهم من

[1] «مسند أحمد»: ٥٠٧/٦/ح٢٢٧٣٩.

[2] «مسند البزار»: ٣٩٦/٩/ح٣٩٨٤.

[3] «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف»: ٨٩/٤/ح٤٩٢٧.

الانطلاق نحو الخارج إلى الانتكاسة نحو الداخل هو الذي حقق الكثير من الأمراض التي أوهت هذه الأُمَّة وأذهبتها بعد ذلك.

الحِراك نحو الخارج كحركة الماء مِن عُلُوٍ إلى نُزُولٍ، يُساق من داخله ما يُعرض من قاذورات ونجاسات، ويمنع حصول التوطين لها ولغيرها من الأمراض والخبائث، ومجرد السكون يعني دخول الفساد في الماء؛ أي في الأُمَّة.

لقد حدثتِ الفتنة الأُولى داخلياً بمقتل ذي النورين الصادق البار عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد ثوار مجرمين فسقة ـ عامَلَهُمُ الله بما يستحقون ـ، وكانت فتنة عظيمة هائلة، وهي في تقيِّيمها التاريخي كانت قادرة أن تنهي مفهوم الأُمَّة واقعاً، إذ كانت في قلب الإرادة، وكان ما أعقب القتل من حرب داخلية هو الأشد والأقسى، إذ انشطر العالم الإسلامي إلى قسمين عظيمين ـ كما سماهما رسول الله ﷺ: «**فِئتين عظيمتين**»[1] ـ وكانتِ المقتلة بينهما عظيمة شديدة، وكان عِلاجها بعد الصُلح هو ما هُدي إليه خُلفاء بني أُميَّة من دفع الأُمَّة إلى الجهاد نحو الخارج، وقد تحقق في زمن الدولة الأُموية مِن الفُتوحات العظيمة التي حققت بقاء الأُمِّة ومنع الفتنة من أن تأخذ أبعادها السَّننية في إزالتها أو توهينها.

لم تكن هذه الفتنة الداخلية العظيمة قد سبباً ولا بدايةً لإرساء قاعدة الضُعف الذي وصلنا إليه اليوم، وأما مَن حاول من أصحاب البدعة أو مَن سايَرَهُمْ مِن المُستشرقين وأذنابهم في جعل هذه الفتنة هي أول عوامل الهدم في الأُمَّة فقد أخطأ ولم يُصِبْ.

لقد كان العصر الأُموي عصراً عظيماً، فيه الانجازات والبناء لأنَّ أكثر خُلفائه كان همهم هو الهم الأول في الدفع نحو الخارج، وهو في واقعه تحصينٌ للداخل كذلك، وهذا ليس حديثاً عن النوايا فالحضارات لا تُبْنَى ولا تدوم بالنوايا لكن بالفعل والإرادة.

---

[1] «البخاري»: ٢٧٠٤. أطرافه في: ٢٦٢٩، ٣٧٤٦، ٧١٠٩.

في الوقت الذي توقفَ الدفق نحو الخارج، وسكنتِ الأُمَّة لذاتها، وصار البناء الداخلي للمدن وشعوبها يقوم على الترف والزخرفة، وهي لحظات في الزمن تُعد عند البعض «أزمنة حضارية» راقية، تمدح بها الحضارات، ويُعد هذا الترف والزخرفة هو مظهر الحضارة الحقيقي هنا يكون الانهيار قد بدأ.

لقد أخبر رسول الله ﷺ فيما أخبر أنه ستُفتح كسرى وقيصر، وستُنفق أموالهما في سبيل الله[1]، وهذا الذي تحقق في الدفق الإيماني نحو الخارج، إذ كانتِ الغنيمة عامِلَ إمدادٍ لقوةٍ أكبر، لكن في لحظات التراجع صار الغزو مع قِلَّتِه جلباً للغنائم لتُنفق على الشهوات والترف والزخرفة، وبذلك تحققتِ القطيعة بين الولايات الإسلامية، فبدأ غرور القوة والحسد على الغنيمة يدفع السلاطين والأمراء للاستقلال عنِ المركز، فبدأ مرض التنافس والحروب على النُفوذ وما يتبعه من دنيا فبدأ وهن الأُمَّة.

أمراضُ الأفراد في المُجتمعات أمرٌ قَدريٌّ، فكل مجتمع مهما بلغ طُهر أهله فلا بدَّ مِن ظُهور أمراضٍ خُلقية واجتماعية وبِدعٍ دينيةٍ، فلا وجود لمجتمعٍ بريءٍ خالصٍ من ذلك أبداً، ولو أراد امرئ أن يجمع ما وقع في مجتمع الصحابة ﷺ في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من أحداثٍ في هذا على طريقة كتاب «الأغاني» للأصفهاني لظنَّ القارئ أنَّ هذا مجتمعٌ لا يمت إلى الصلاح بصِلَّة، ولو جُمعت أخبار الأمور الصالحات في المجتمع لظنَّ القارئ أنَّ هذا مجتمعٌ ملائكيٌّ لا ذنوبَ فيه، والمجتمع الإسلامي مجتمع إنساني في فرده وأُسرته، فأي محاولة لربط انهيار «الحضارة» و«الأمة» بأعمال الأفراد هو جرٌّ للهامش ليكون أصلاً، لأنَّ الذي يُذهب الأُمم هو غِياب صِبْغَتها الكُلية وانحراف توجهها لا ممارسات جزءٍ من أفرادها في داخلها على وجهٍ خاصٍ شخصيٍّ، فأيُّ حديثٍ عن أخطاءٍ داخليةٍ تتعلَّقُ بالسلوك في تفسير غِياب مفهوم الأُمَّة وذهاب الحضارة الإسلامية هو تفسيرٌ

[1] «السنن الكبرى للبيهقي»: ١٨٢٢٩ .

غير مُصيبٍ، لكنه يجد القبول عند النَّاس لأنَّ الأُمَّةَ بعمومها تُدْرِكُ هذه الذنوب، وقد صُنِفَتْ فيها كتبٌ كثيرةٌ ككُتب الكبائر والصغائر وكُتب البدع، لكن لا يُدرك الكثير «الذنب الجماعي» أي ذنب الأُمَّة في تركها لواجبها في أداء مهمتها في هذه الحياة.

هذا لا يعني أبداً أنَّ انتشار الخَبَثِ في الأُمَّة لا يحقق دمارها وذهابها، فقد سُئِلَ رسول الله ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[1]. والجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى في سورة هود: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾**﴾ [هود: ١١٧] بيِّنٌ واضحٌ، فالصلاح الذاتي الساكن لا يمنع انتشار الخَبَث، وبالتالي لا يمنع الهلاك والدمار، لكن ما يمنع الهلاك هو منع الخَبَث وهو الإصلاح، وهو فِعْلٌ نحو الخارج في داخل الصف الواحد، والجهاد في سبيل الله هو من نوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعكس صحيح، فالفاقِرة هي السكون والانتكاسة نحو الداخل بسبب حبِّ الدنيا وكراهية الموت، وعلى ذلك بسط الدنيا والترف وكثرة الشهوات.

لقد بدأ غِياب الأُمَّةِ ووهن عندما غابتِ الأُمَّة عنِ الحضور نحو الآخر، فانشغلَ أئمة الوِلايات والدول بالحِفاظ على ما هم فيه، والتوسع على حِساب الذات ـ وهو الآخر المسلم ـ فصارتِ الأُمَّة تبلع ذاتها، وتهضم وُجُودها، وهم بهذا الواقع يتنافسون في البناء الداخلي على وجه الترف والزخرفة، إذ يعتبرون هذا البناء هو ما يحقق لهمُ الخَيْرية والاستعلاء على الآخرين، وهذا هو قوله ﷺ: «**تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**» فهو حديثٌ لا يتكلم عن تنافس أفراد المجتمع وإن كان هذا المعنى داخلاً فيه، لكنه حديثٌ عن طبيعة الأُمَّة وصِبْغَتِهَا الكُلية وَوُجودها العام.

[1] «البخاري»: ٣٣٤٦. أطرافه في: ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥. «مسلم»: ٢٨٨٠.

قيمة هذا الحديث في زماننا لإعادة الأُمَّة ومفهومها ووُجُودِها الفاعل في أُمورٍ مُتعددةٍ، بل هذا الحديث أصلٌ من أُصول الإصلاح وإزالةِ هذه الغُربة، وهي الغربة الثانية لدين الله تعالى ومن ذلك:-

لا يمكن أن يكون سبب الفساد هو عينه سبب الصلاح، فبسطُ الدنيا هو سبب الفساد، فمِنَ العجب أن يسعى بعض المُصلحين إلى التوسعة والترف عنواناً لا بدَّ منه لجماعات الإصلاح، وهؤلاء لهم حِيَّلٌ نفسية عجيبة، فهم يُوهِمُونَ أنفسهم وأتباعهم أنَّ ما يسعون إليه من دنيا إنما هو لخدمة الدين، وما نهي عنه هو الدنيا للدنيا، والكثير مِن التجارب لهؤلاء دلتْ أنَّ بعدَ هذا التوسع والبسط ينقلب أمرُ هؤلاء إلى الخُصومة حول هذه الدنيا التي جمعوها، أي حصل التنافس كما في الحديث، وقد حدث هذا على وجهٍ متكررٍ في صورٍ، وفي صورٍ أُخرى كان هذا البسط سبباً في ضعف أداء هؤلاء مخافةَ ذهاب هذه الانجازات كما يُسمونها، إذ أن بناء مؤسسةٍ ماليةٍ تحت سيطرة الجاهلية وسُلطانها يصبح صاحبها خاضعاً لقانون رأس المال الجَبان الذي يخاف المجازفة، ويضطر للدفع حِفاظاً عليه ولو على حساب قِيَّمِهِ، ولذلك قِلَّة الدنيا بين يدي المُصلحين عامِلَ قوةٍ في كلِّ زمنٍ، وفي زماننا خاصةً فلا يخاف هؤلاء من ذهاب دُنياهم ومراكزهم ومُؤسساتهم، بل هم ينطلقون في ثَباتٍ على مبادئهم دون اضطرارٍ للمُساومةِ أو إعطاء الخَصْمِ فرصته للضغط والانتصار.

لقد استعجلَ البعض في بناء المؤسسات المالية تحت سُلطان الجاهلية، وقد أغراهم في هذا ما تحقق بها في الابتداء من مصالحِ ظاهرة، كتوظيف الأتباع واستقلال الوارد، واتخاذها في بعض الجوانب سبيلاً لنشر الدعوة، ولكن كانت ضريبة هذه المؤسسات أكثر ضرراً من هذه المنافع، وكان بِوُسْعِ هؤلاء أن يحققوا هذه المصالح من غير هذا الطريق، كما أنَّ هناك خطراً أشدّ من ذلك وهو أنَّ سوق الأتباع على هذا الوجه المُؤسسي حولهم مِن مهديين في قلوبهم وعُقولهم إلى

موظفين أُجراء، يرتبطون بالدعوة على وجهٍ مؤسسيٍّ، وكان مِن أشدِّ مفاسد هذه الظاهرة هو غِياب الورع في الطبقات العُليا في هذه المؤسسات، حيث ترى التدين في القواعد، وكلما صعدتِ الوظيفة بصاحبها كلما كان في الفساد وغِياب الورع، ومن الظواهر البارزة في هذه المُمارسات أنَّ الكثير من هؤلاء القوم الذين دخلوا طبقة ـ الملأ ـ من خلال هذه المؤسسات التي بدأت خدمة الدعوة ـ كما أراد رُوادها ـ أن انقلبوا على الدعوة بمجرد أنْ لوحَ لهمُ الطاغوت بقيادة مؤسسةٍ أُخرى مُوازيةٍ لهذه المُؤسسات، وسببُ ذلك هو بناء عقلية هؤلاء الأتباع الذين عاشوا في هذه المُؤسسات على نوعٍ يُضْعِفُ جانبَ الدعوة مُقابِلَ المُؤسسة.

لقد عَلِمَ كل مَن درسَ تاريخ الأنبياء والمُصلحين أنَّ هناك توافقاً ثدرياً بين دعوتهم وبين الواقع الذي تحقق فيه نجاح هذه الدعوة، ومن غير توافقٍ فإنَّ مصير هؤلاء الأنبياء والمُصلحين هو الشهادة في سبيل الله تعالى أو الهجرة، فقد ذُكر أنَّ الله سبحانه وتعالى هيَّأَ أهل المدينة لقبول دعوة رسول الله ﷺ بأمورٍ قَدرية منها ما حدث من مقتلة كُبرائهم في موقعة بُعاث، فذهب «الملأ» وبقي الشباب الذين لقلوبهم هيئة تجعل قبولِهم للحقِّ ميسوراً وسهلاً، كما هيَّئَ لهم مِن مجاورة اليهود وعِلمهم بخبر نبيٍّ قادمٍ، وفي هذا الحديث بيانٌ أنَّ الترف وبسط الدنيا لا يحقق أرضية الصلاح والإصلاح، فإنَّ المُترفين والمُعمين يخافون ذهاب أملاكهم مع هذا الدين الذي يُوجب على أصحابه محاربة العرب والعجم والأصفر والأحمر كما هو بيِّنٌ في سيرة رسول الله ﷺ ودعوته للعرب في مكة المكرمة، وكان هذا من أسباب إعراض بعض القبائل عن قبول نصرة النبي ﷺ والدخول في دين الله تعالى.

الأرضية البيئية لانطلاق الإصلاح، وتحقق الدفق الإيماني للخارج كما هو إصلاحٌ داخليٌّ يكون في واقعٍ بعيدٍ كلَّ البُعْدِ عنِ الترف وبسط الدنيا وزخارفها، ولذلك فإنَّ الأُمم المُسلمة المُترفة اليوم همْ أبعدُ النَّاس عن تحمل الدعوة وبعثِ

الأمة وإزالة الغُربة الثانية، بل البيئة المُناسبة لذلك هي بيئة التحدي وشظف العيش وقسوة الحياة، فإنَّ هؤلاء هم مادة البعث والانتصار وتحقق الحضارة، لكن عيون مَن يُسمى بالمُفكرين المسلمين في عمىً عن ذلك، لخضوعهم في مفهوم الحضارة للدين الجاهلي والذي يرى أنَّ ما يتحقق من الترف المادي والفكري هو الحضارة، وليس الحضور القاهر، ومع المفهوم الإسلامي الحضور العلمي الهادي إلى الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤١]، ومَن يُسمى بالمُفكرين المسلمين اليوم يحتقرون البيئات الفقيرة التي في عُرْيٍ عن زهرة الدنيا وزينتها وبسطها، بل يرون هذا تخلفاً لا يحقق الحضور الإيماني القاهر الغالب، ولذلك انطلاق جماعات الجهاد الإسلامي من هذه البيئات هو دلالة صواب لها لو تفكروا في مفهوم الأُمم وانبعاثها من الكتاب والسُّنَّة، لكنهم هم أبعد النَّاس عن ذلك، ولذلك تجد جماعات العمل السياسي والمُؤسسي تُعاني الزحام والتخمة في البيئات المُترفة، وكذلك الوُعاظ والقُصَّاص تجدهم يتنافسون في هذه البيئات مع إعراضٍ تامٍ عن بيئة البلاء وشظف العيش والفقر.

انطلاق الجهاد من بيئات المُعاناة يحقق لها العمل الصحيح، ويدفع قادتها لتحمل نتائج الصِراع مع الجاهلية إذ ليس عندهم ما يخشونه بخلاف غيرهم ممن ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] ممن بنواْ أَبنية الزجاج الرقيق التي تنهار بالصرخات قبل الضربات، وعند أصحابها الاستعداد التام للتنازل عنِ المبادئ تحت حُجة المُحافظة على مكتسبات الدعوة والدُّعاة، وما هي إلاَّ «بسط الدنيا» التي هي عماد الهلكة لهذه الأُمَّة وكل أُمَّةٍ.

دخول جماعات العمل الإسلامي في تنافسٍ على الدنيا مع الآخرين يُبْعِدُ حقيقةَ النَّصر، ويُلغي مفهومَ الهداية والصِراع على المبادئ مع الآخرين، وقد

اضطرت هذه الجماعات في هذا الصِراع مع الأحزاب العِلمانية الأُخرى أن تلغي مفهوم الإيمان فارقاً بينهم وبين الآخرين، فهم يزعمون أنهم غير «تكفيريين»، ولا يُريدون شطب وإلغاء الآخر، وإنما الخلاف على برامج في أحسن ظُروفه، وقد أوقع هذا في النفوس مفاهيم الصِراع على الدنيا واحتوائها، لأنهم رفعوا مفهوم الإيمان فارقاً بينهم وبين الآخرين، ولا يجرؤون قط تسميتهم بغير المسلمين مع رفعهم المُتكرر عنوان معارضة الإسلام السياسي كما يُسمونه، أي إسلام الحُكم والقضاء والتسليم لأمر الله تعالى في شؤون الحياة، ولذلك تحولت هذه الجماعات مع غيرها إلى صِراع مكاسب في العُمق، ثمَّ إنَّ في أداء ما يتحقق لهم مِن نَصْرٍ جُزْئِيٍّ بتحصيل بعض المكاسب يكون السعي لتحقيق الخدمات الدنيوية للأتباع والنَّاس الآخرين، دون عَرْضٍ لمفهوم الأنبياء في الدعوة، وهو إصلاح دين النَّاس الذي له عنوانٌ أَوَلِي عند الإيمان به وهو الابتلاء، من هنا نرى كَثْرَة الجُموع في الابتداء لهذه الجماعات وهذا خلاف ما يُعرف عنِ الدعوات أنَّ الأتباع يبدؤون بالقِلَّةِ ثمَّ يتكاثرون لِما يحيطُ الدعوة مِن بلاءٍ وشدَّةٍ ومُعاناةٍ في أول الأمر، **ورفض الجُموعِ الآن لجماعات الجهاد بسبب ما يتحقق مِن اللحوق بها من الابتلاء لهذه الجُموع، وهو عين ما عاشته الغُربة النبويَّة الأُولى.**

لقد تلطخت هذه الجماعات بالدنيا أصالةً، وصار الدين صِبْغاً ظاهرياً لهياكل مادية حقيقة في النفوس، وصارتِ القيادات لهذه الجماعات الإسلامية جزءاً من المرض لأنهم صاروا في الحقيقة جزءاً مِن الملأ المُترف الذي يخاف ذهاب الدنيا، وقد التقتْ مصالحه مع مصالح الجاهلية في بقائها وسُلطانها، كل هذا لأنَّ هذه الجماعات بنتْ نفسها ضِمن خُطة الخصم والهلاك وهو أنها صارت نسيجاً داخلاً في بسط الدنيا.

هذا الحديث يُعلم المؤمنين تركَ التنافس على الموجود، إذ في وقوع ذلك حصول الفساد، ولكن التنافس الممدوح بالانطلاق نحو الآخر المفقود، وهذه

قاعدة الحق في إبعاد الصراعِ المذموم، والحسد القاتل، والتنازع الذي يُذهب الريح، فالتاجر المُؤمن التقي هو الذي لا يأتي على مجال تاجرٍ مستقلٍ ليُنافسه فيه كما يقع دوماً، بل إنْ أراد السلامة لدينه، وتحقيق الدوام والربح الواسع هو الذهاب إلى أُفُقٍ آخَرٍ ومجالٍ غير مسكون ليحصل فيه رِزقه ويصنع فيه تجارته، وكذلك الداعي لا يأتي إلى تلاميذ داعٍ آخرٍ لِيُعَلِمَهُمْ ويَرْبَحَهُم بلِ الداعي التقي هو الذي يحضر الجهلة أو العُصاة مِن خارج الحُضور والموجود ليُحقق بهمُ العِلْمَ والطاعة والعمل لدين الله تعالى، وهكذا تضطرد هذه القاعدة في كلِّ جوانب الحياة، فلا تنافسَ على المَوجود، لأنَّ في ذلك ارتدادُ سَهْمِ التوجه نحو الرِبح والزيادة العامة، ووقوعِ ذلك يصنع التنازع على المَوجود الذي يتفرق ثمَّ هو يُنازعُ نفسه حتى يهلك ذاته، وهو دعوةٌ كذلك لفتح آفاقٍ بعيدةٍ غير مأهولة ولا فيها مُزاحمة، فليس مِن الدين ولا العقل ولا نفع الأُمَّة الصراع بين المؤمنين على الأرض النافعة الخضراء، بل الخير والدين ونفع الأُمَّة التوجه نحو الأرض الموات لإحيائها حتى تتحقق الزِيادة لجُمُوعِ الأُمَّة، وهذا السبيل فيه المشقة والتعب لكن فيه المنفعة الآجلة للمرء وللمسلمين وللعالم.

لِيَعْلَمَ الذين يريدون قيادة العالَم وهِدايته، والذين يُريدون الدخول في زُمرة المُصلحين والمُجددين أنَّ الزهد في الدنيا شرطٌ ورُكْنٌ لذلك، ولو تفكرَ امرؤٌ في تاريخ المُصلحين والمُجددين، وقَبْلَهُم تاريخ الأنبياء لَوَجَدَ أنَّ سِمتهم الحياتية الجامعة هو قِلَّة الدنيا والزهد فيها، وهذا الزهد فِعْلٌ إراديٌّ واختياريٌّ منهم، وكأنَّ الفقرَ قدرٌ لازِمٌ لهم، فكل هذه الموع[1] مِن خريجي المعاهد العِلمية والجامعات الإسلامية لن يتحقق بها التغيِّير في صُعود الإسلام والمسلمين إلى ذُرى العِزَّة وترك المهانة إلاَّ إذا أعرضتْ عن سبيل أهل الدنيا والإكثار منها، وتنكبتْ طُرُقَ الوظائف الدنيوية، وسلكتْ طُرُقَ حَمَلَّةِ هذا الدين وحَمَلَّةِ العِلْمِ، فليس

[1] **موع**: الميم والواو والعين: ماعَ الصُّفْرُ والفِضَّة في النار يُموع ويَميعُ: ذابَ. [«مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس].

الإكثار مِن الدنيا إلاَّ مُعَوِّقٌ لهم عن كلمةِ الحقِّ وخاصةً أنهم يأخذون هذه الدنيا باسم الدين من وظائف تخضعُ لأحكامٍ تُوجِبُ تركَ الحقِّ وتركَ الأمرِ بالمعروف والنهي عنِ المُنكر، ولذلك فإنَّ كلَّ دِرْهَمٍ يأخذونه باسم هذه الوظائف هو استنزافٌ للحقِّ الذي يعلمونه.

ومع هؤلاء الدُّعاة والوُعاظ والمُفتين يُقال لقادة ما يُقال له بالعمل الإسلامي، فإنَّ السِمَّةَ الغالِبة على قادة الأحزاب في هذا الباب هي نفس السِمَّة التي يعيشها الملأ المُترف الذي يرفض الدعوة دائماً، ولذلك صار هؤلاء القادة جزءاً من الملأ، لهم نفس مصالحه، وقد وقفوا على قيادة هذه الحركات التي يعيش فيها الشباب ليضبطوا حركتهم ورِدة أفعالهم حتى لا تخرج عن إطارها ضمن خطةِ الجاهلية نفسها، ولذلك هم أكثر النَّاس بُغْضاً لمُواجهة الجاهلية بأيِّ صُورةٍ مِن الصُور، أما الجهاد فهم أشد أهل الإسلام إنكاراً له، وذلك بوضع ضوابط جاهلة باطلة تمنع حدوثه كان آخرها منعهم لأتباعهم من اللحوق لساحات الجهاد إلاَّ بمُوافقة الطاغوت الحاكم نفسه[1]، فقائل هذا القول كيف يسمح بمُجَالَدِة هذا الطاغوت الجاثم على صدر الأُمَّة في هذا البلد الذي يعيش فيه؟!.

ستكون حجتهم دوماً: إننا نُريد الحِفاظ على مكاسب الدعوة، وواقع الأمر هو الخوف على الترف وصبغة الملأ المعروفة في تاريخ الأنبياء، ولذلك فمن موازين الحق التي يجب إعمالها في رصد الحقِّ وفَرْزِهِ عنِ الباطل هو النظر إلى دنيا المُفتي والقائد والواعظ، فالزهد والإعراض عن الدنيا وعدم حُبِّها والرغبة في الدار الآخرة ليست مواعظ يتناقلها القُصَّاص والخُطباء، وأما زاعمُو الفكر والإحياء الحضاري وتغيِّير العالَم فهم أكبر من هذه المواضيع الذاتية الخاصة كما

[1] صرح بمثل هذا حامد أبو النصر المرشد العام للإخوان المسلمين وقتها في لقاء صُحفيٍّ أُجري معه ببيشاور نهاية الثمانينات حينما سُئل عن سبب عدم مُشاركة الإخوان بجانب المجاهدين ضدَّ المحتل السوفياتي. فكان رده بالحرف الواحد: «لو أنَّ حكومتنا سمحت لنا لجاهدنا معكم!!». [الناشر].

يتصورون، بل إنَّ بعضهم يزعم أنَّ هذا الحديث ـ في هذا الباب ـ هو من أبواب الرقائق والتحسينات لا من الواجبات والأركان، مع أنَّ هناك من يزعم أنَّ هذا بابٌ دخيلٌ على المفهوم الإسلامي، وكل ذلك لجهل هؤلاء بحقيقتين: حقيقة الحق في صراعه مع الآخرين، وحاجته إلى التجرد عن عوامل الضعف التي تمنع ثباته ودوامه وتحقيق نصره. وحقيقة صبغة النُّبوة وأتباعها على مدار التاريخ.

سيُرد على هذا الحديث بما حصلَ للصَّحابة من غنًى، وسيبدأ الخصوم عدَّ ما كان في الصحابة من ثراء كما كان حال عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وما كان من إرث الزبير بن العوام، وليتَ هؤلاء العادِّين يعدُّون مع هذا سِمَّة المُؤمن الثري، وكيف كان حال هؤلاء مع هذا الثراء، لأنَّ هؤلاء القوم لهم حلاوة الحديث دون غيره، فيأخذون ما يحبون ويذرون غير ذلك، ومع ذلك فليس الحديث عن ثراء فردٍ أو جماعةٍ ولكن هذا الحديث عن واقِع أُمَّةٍ تريد بناء ما تهدم، وإحياء ما مات، وإعادة عزة مفقودة، وإذهاب غربة ثانية، ولا يمكن أن يلحق بركب الرجال الذين يتصدون لهذه المُهمة العُظمى إلاَّ أهل الزهد واليقين، ومن لحِقَ بهؤلاء من أهل الثراء فليعد نفسه في مراحل البناء الأولى للفقر وشظف العيش وقِلَّة المؤُونة، ذلك لأنَّ البناء في بدايته له معنى وواقع غير ما يحصل بعد اكتماله أو إرساء قواعده.

والحمد لله ربِّ العالمين

☆☆☆☆☆
☆☆☆☆
☆☆☆
☆☆
☆